روايات الاغاني

يعد ابو الفرج الاصبهاني المتوفى سنة ٣٥٦ هـ اكبر مؤلف عرفته اللغة العربية . ولا يوجد في المؤلفين من بعده من لم يعول عليه ، ويندر ان نجد باحثاً في تاريخ الادب او تاريخ الاسلام لم يتخذ كتابه الاغاني مرجعاً له . والاغاني هذا كتاب عظيم في ٢١ مجلداً ألفه الاصبهاني في خمسين سنة وكتبه مرة واحدة في عمره واهداه الى سيف الدولة بن حمدان

وشهرة الاصبهاني وكتابه مستفيضة فلا حاجة الى اعادة ما يعرفهُ الناس . وانما اريد هنا ان انص على ناحيتين من الاصبهاني وكتابه لم اجد من تنبه لها من الباحثين ، ولهاتين الناحيتين شأن عظيم في فهم الحياة الادبية ، وسيكون لها اثر بعيد في دعوة المؤلفين الى الاحتياط حين يرجعون الى كتاب الاغاني يتلمسون الشواهد في الادب والتاريخ

الناحية الاولى خاصة بالاصبهاني : تلك الناحية هي خلقه الشخصي ، فقد كان الاصبهاني مسرفاً اشنع الاسراف في اللذات والشهوات ، وقد كان لهذا الجانب من تكوينه الخلقي اثر ظاهر في كتابه ، فان كتاب الاغاني احفل كتاب بأخبار الخلاعة والمجون . وهو حين يعرض للكتاب والشعراء يهتم بسرد الجوانب الضعيفة من اخلاقهم الشخصية ، ويهمل الجوانب الجدية اهمالاً ظاهراً يدل على انه كان قليل العناية بتدوين الجد والرزانة والتجمل والاعتدال . وهذه الناحية من الاصبهاني افسدت كثيراً من آراء المؤلفين الذين اعتمدوا عليه ، ولنظرة فيما كتبه المرحوم جورجي زيدان في كتابه تاريخ ادب اللغة العربية ، وما كتبهُ استاذنا الدكتور طه حسين في حديث الاربعاء تكفي للاقناع بان الاعتماد على كتاب الاغاني جرَّ هذين الباحثين الى الحط من اخلاق الجماهير في عصر الدولة العباسية وحملهما على الحكم بان ذلك العصر كان عصر شك وفسق ومجون

ولا اريد بهذا ان احكم بان الاصبهاني كان يتعمد الاختلاق ، وان الجمهور في العصر العباسي كان مفموراً بالطهر والعفاف ، كلا . فقد قلت غير مرة ان الحياة الانسانية مزيج من الشك واليقين والحلم والجهل والهدى والضلال ، وان الانسان لا يكون خيراً محضاً ولا شراً محضاً ، وانما يتفاوت في ان تكون سرائره مسرحاً لتوازع الغي والرشد والبر والفجور. ولكن اريد ان اقول : إن اكثار الاصبهاني من تتبع سقطات الشعراء ، وتلمس هفوات الكتاب ، جعل من كتابه جواً مشبعاً باوزار الاثم والغواية ، واذاع في الناس فكرة

خاطئة هي اقتران العبقرية بالزق والطيش والخروج على ما ألفت الجماهير من رعاية العرف والدين

اما الناحية الثانية فهي خاصة بكتاب الاغاني : تلك الناحية هي وضع ذلك الكتاب في مقدمته عبارات صريحة في الدلالة على ان مؤلفهُ قصر اهتمامه او كاد على إمتاع النفوس والقلوب والاذواق : فهو كتاب ادب لا كتاب تاريخ . واريد بذلك ان المؤلف اراد ان يقدم لأهل عصره اكبر مجموعة تغذّى بها الاندية ومجامع السمر ومواطن اللهو ومغاني الشراب . وانهُ ليحدثنا في المقدمة بأنهُ اتى في كل فصل من كتابهِ بقِطَع اذا تأملها قارئها لم يزل منتقلاً بها من فائدة الى مثلها ، ومتصرفاً فيما بين جد وهزل وآثار واخبار وسيرَ واشعار ، متصلة بأيام العرب المشهورة ، واخبارها المأثورة ، وقصص الملوك في الجاهلية والخلفاء في الاسلام. واخبرنا بعد ذلك بانهُ اهتم بالغناء الذي عرف لهُ قصة تستفاد وحديثاً يستحسن . وعلل ذلك بقوله : « اذ ليس لكل الاغاني خبر نعرفهُ ، ولا في كل ما لهُ خبر فائدة ، ولا لكل ما فيهِ بعض الفائدة رونق يروق الناظر ويلهى السامع »

واحب ان يتأمل القارىء قوله « رونق يروق الناظر ويلهى السامع » فهذا التعبير هو الوصف الصادق لما اختار الاصبهاني ان يدور عليهِ كتابهُ حين اراد ان يقدم ما راقه من ايام العرب وقصص الملوك في الجاهلية والخلفاء في الاسلام . ولاسيما اذا لاحظنا ان كلامه يشعر بانهُ مستعد لاهمال ما فيه بعض الفائدة اذا خلا من ذلك الرونق الذي « يروق الناظر ويلهى السامع » فهو اذن يسابر القراء المتطلعين الى النواحي الطريفة من اخبار الملوك والخلفاء والوزراء والكتاب والشعراء . ولهذا النحو من التأليف قيمة عظيمة جدًّا اذا فهمهُ القارئ على وجههِ الصحيح : فهو دليل على خصوبة التصور والخيال ، وبرهان على ان كتّاب اللغة العربية لم يحرموا من القصص الشائق الخلاب ، ولم يفتهم ان يقدموا لاوقات اللهو والفراغ ما تحتاج اليهِ العقول المكدودة والنفوس المحزونة من طرائف الاقاصيص وغرائب الاسمار . ولكن الخطر كل الخطر ان يطمئن الباحثون الى ان لروايات الاغاني قيمة تاريخية ، وان يبنوا على اساسها ما يشاءون من حقائق التاريخ لاسيما وصاحب الاغاني يصارحنا بأن « في طباع البشر محبة الانتقال من شيء الى شيء ، والاستراحة من معهود الى مستجد، وكل منتقل اليهِ اشهى الى النفس من المنتقل عنهُ ، والمتكرر اغلب على القلب من الموجود » وان « انتقال القارئ من خبر الى غيره ومن قصة الى سواها ومن اخبار قديمة الى محدثة وميلك الى سوقة وجد الى هزل » أدعى الى نشاطه وأبعث على شهوته لتصفح ما في الكتاب من مختلف الفنون

ولأضرب المثل بما قصه صاحب الاغاني من اخبار عمر بن ابي ربيعة . وهي اخبار

ظنها كثير من الباحثين صورة لحياة الحجاز في القرن الاول للهجرة . وقد حدثني المسيو ماسنيون بان لاشعار عمر بن ابي ربيعة وحوادثه اهمية عظيمة من هذه الناحية . وانا قد اعتمدت بالفعل على كتاب الاغاني حين فصلت احاديث من عرّف ذلك الشاعر من الملاح في الطبعة الثالثة من كتابي « حب ابن ابي ربيعة وشعره » . ولكنني دعوت القارئ الى الاحتراس وبينت لهُ انني اريد ان ارسم من ابن ابي ربيعة صورة جذابة تشبه صورة مسيه عند الفرنسيين وجوت عند الالمان وبيرون عند الانجليز . وانا استبيح هذا النحو من استغلال كتب الادب والتاريخ ، فان الادب يُقصد به إمتاع القلوب لاقناع العقول. ومتى نص الكاتب على ان وجهته فنية محضة وان منحاه ادبي صرف فقد أبرأ ذمته ممن يريد ان يتخذ من اقاصيص الادب صورة صادقة لحياة الاشخاص وما احاط بهم من مختلف البيئات وشتى الظروف . وكذلك فعلت حين قلت :

« ان كثيراً من حوادث ابن ابي ربيعة الغرامية من صنع الخيال . وقد قبلناه على علاته واكتفينا بتلك الاشارة عند التمهيد لأخبار الملاح ، اذ كانت حوادث ابن ابي ربيعة التي أضيفت اليه تدلنا على شيئين : فهي اولاً علامة على ان المتقدمين ألفوا بروحه ، وأسلموا قلوبهم لوحيه ، فابدعوا في ظلال ذكراه ما شاء الخيال من احاديث الحب الظافر والهوى الغلاب ، وهي ثانياً دليل على انهُ كان للمتقدمين ميل الى القصص الغرامي وحظ من الاجادة فيه » — راجع ص ٢٩٥ وما بعدها من حب ابن ابي ربيعة

لكن صاحب الاغاني لم يفصل شيئاً من ذلك ، وانما ساق اخبار ابن ابي ربيعة كلها على انها حقائق ، وساقها مروية بالسند ، والرواية بالسند شيء ساحر فتن به الاستاذ الرافعي في رده علينا اذ قال : « وهل لسيت ان الرواية علم دقيق له آداب وشروط ! » واعتماداً على هذا العلم الدقيق اطمأن اكثر الباحثين الى روايات الاغاني فضلوا وأضلوا في حقائق التاريخ

قلت ان صاحب الاغاني كان يهتم بالنواحي الطريفة من السير والاخبار . فلا ذكر من أدلة ذلك انهُ حدثنا بسنده عن اخي زرقان عن ابيه قال : ادركت مولى لعمر بن ابي ربيعة شيخاً كبيراً فقلت له : « حدثني عن عمر بحديث غريب » وكلمة « حديث غريب » هذه لها معناها فيما نحن بسبيله من اخذ الرواة بالتلفيق والاختلاق . فان البحث عن الاوضاع الغريبة من احاديث عمر بن ابي ربيعة يدل على ظمأ تلك النفوس الى النادر المستطرف من القصص والاحاديث . وما عسى ان يكون ذلك الخبر الغريب ؟ هو خبر يشبه من بعض نواحيه قصة حج ابي نواس التي اخترعها ابن دريد : فابو نواس حين رجع من حجه اجتذبه جماعة من حسان النساء ، وما كاد يطمئن الى ظفره بما كان يشتهي من جميل

الصيد حتى دخل عليه جماعة من العبيد في حالة جارحة بدّدت ما نظم من ساحر الاحلام وأتى ابي ربيعة في حجه تمرض لنسوة من جواري بني امية تخلفنهُ ووعدنهُ بتذكرة طيبة تكون تحفة لهُ كلما تذكر انسهُ بهن في ايام الطواف . فلما بعث غلامهُ بتسليم التذكرة عاد ومعهُ صندوق لطيف مقفل مختوم كان يُظن انهُ أودع طيباً او جوهراً ، ففتحهُ فاذا هو مملوء من المضارب . . . . . واذن فقد تم التشابه بين قصة عمر وقصة ابي نواس

ونجد صاحب الاغاني في مكان آخر يروي بسنده عن عثمان ابن ابراهيم الخاطبي قال :

« اتيت عمر بن ابي ربيعة بعد ان لسك بستين وهو في مجلس قومه من بني مخزوم فانتظرت حتى تفرق القوم ثم دنوت منهُ ومعي صاحب لي ظريف وكان قد قال لي : تعال حتى نهيجهُ على ذكر الغزل فننظر هل بقي في نفسه منه شيء ؟ فقال له صاحبي : ياابا الخطاب اكرمك الله، لقد احسن العذري واجاد فيما قال، فنظر عمر اليه ثم قال له: وماذا قال؟ قال حيث يقول

لوجُذَّ بالسيف رأسي في مودتها لم يهوى سريعاً نحوها رأسي

ثم مضى يهيجه بالشعر حتى طرب . وحدثهما بحديث وُصف بانهُ «حديث حلو» وتلك الحلاوة لها سناها ايضاً فهو نص على انهُ وُضع ليكون فكاهة طريفة يتثقل بها السامرون في مجالس الشراب . ويتلخص الحديث في ان خالد الخِرّيت صاحب عمر حدثه عن نسوة مررن به قُبيل العشاء لم ير مثلهن في بدو ولا حضر ، فيهن هند بنت الحارث المرية واشار عليه بأن يأتي متكراً ليسمع من حديثهن ويتمتع بالنظر اليهن ولا يعلمن من هو . فقال له عمر : ويحك ! وكيف اخفي نفسي ؟ فأشار اليه بأن يلبس لبسة اعرابي ثم يجلس على قعود فلا يشعرن الا به وقد هجم عليهن ، فأطاع عمر ، ثم وقف بقرب النسوة وانشدهن ما سألن انشاده من شعر كثير وجميل والاحوص ولصيب . وبعد لحظات تنامز النساء وجعل بعضهن يقول لبعض : كأنا لعرف هذا الاعرابي ما اشبهه بعمر بن ابي ربيعة ! ثم مدت هند يدها فانتزعت منه عمامته وألقتها عن رأسه ثم قالت : هيه يا عمر ! أراك خدعتنا منذ اليوم ؟ بل نحن والله خدعناك واحتلنا عليك بخالد فأرسلناه اليك لتأتينا في اسوأ هيئة ونحن كما ترى ، ثم قالت بعد ان اخذا في الحديث : ويحك يا عمر ! اسمع مني : لو رأيتني منذ ايام واصبحت عند اهلي فأدخلت رأسي في جيبي فنظرت . . . . . فناديت يا عمراه يا عمراه ! ! فصاح عمر : باليكاه ! باليكاه ! ثلاثاً ، ومدّ في الثالثة صوته ، الى آخر الحديث

ونحن نجد لهذه القصة أشباهاً كثيرة من حيث الغرض والاسلوب فقد حدث ان دريد ان رجلاً جلس الى مجنون ليلى في ظل شجرة فقال : ما اشعر قيساً حيث يقول :

يبيت ويضحي كل يوم وليلة على نهج تبكي عليه القبائل

قيل للبنى صدّع الحب قلبه وفي الحب شغل للمحبين شاغل

فقال المجنون : انا اشعر منهُ حيث اقول :

سلبت عظامي لحمها فتركتها معرّقة تضحى لديك وتحصر

والحديث بقية . وفي هذا ما يكفي لبيان الاسلوب الذي كان يجري عليه الرواة في تصوير العشاق الذين تسلوا او يئسوا ، وما كان يعمل ارباب الفضول في اثارة ما كانوا يكتمون من اسرار الوجد الدفين وقد استتر صاحب الاغاني ينقل اخبار عمر من غير نقد ولا تمحيص ، ولكنه فطن في بعض ما رواه الى تلفيق الرواة حين عرض الى تزويج الثريا وخروجها الى مصر وعمر غائب ، فقد قال :

« وهذا الخبر عندي مصنوع وشعره مضعّف يدل على ذلك ، ولكني ذكرته كما وقع اليّ » . هنا دلنا صاحب الاغاني على ارتيابه في بعض الاخبار ، ولكن لماذا يذكر ما يرتاب فيه كما يقع اليه ؟ يذكره لانه يريد ان يقدم ما يروق الناظر ويلهى السامع كما اشرنا من قبل . ولكن لا يفوتنا ان نشير الى ان هذا الخبر ايضاً منقول عن جماعة من الرواة كان يصح ان يحتج بروايتهم لو لم ينص الاصبهاني على انه مدسوس

وفي رأيي ان اخبار ابن ابي ربيعة كلها وضعت تفسيراً لشعره ، لان كل قصيدة من قصائده تشير الى حادثة من حوادثه الغرامية ، وقد صنع الرواة مثل هذا الصنع في اخبار ابي نواس ، فقد لفقوا حديثاً يشرح ابياته المشهورة في جنان التي يقول فيها :

قال اشتكيك وقلت ما ابليت به اراه من حيثما اقبلت في اثري

ويعمل الطرف نحوي ان مررت به حتى ليخجلني من حدة النظر

وان وقفت له كيما يكلمني في الموضع الخلوم ينطق من الحصر

وقد تنبه كثير من الباحثين الى ما دُس على ابي نواس ، ولم اجد من اشار الى ما دسَّ على ابن ابي ربيعة مع ان الرجلين يشتركان في ان كلاً منهما قضى معظم حياته في اللهو واللعب والمجون . واذا جارينا صاحب الاغاني في الاستدلال على وضع الشعر بضعفه ، فان في شعر ابن ربيعة قصائد يغلب عليها الضعف والانحلال ، حتى ليعد معظم شعره عن المتانة التي عُرف بها عصره وطُبع عليها عدد من قصائده

هذا ، ولو مضينا نحصي ما في روايات الاغاني من التلفيق لطال بنا القول ، فلنكتف بهذا ، ولنسجل مرة ثانية ان الاصبهاني اراد ان يكون كتابه معرضاً لما تجمَّع بين ايدي معاصريه من طرف الاقاصيص . فليتبرد القارىء اذن كتاب ادب لا كتاب تاريخ

القاهرة زكي مبارك